وقائع المؤتمر العلمي السنوي الثالث لكلية التربية الأساسية
في مجال العلوم الانسانية والتربوية والنفسية والموسوم:
(مؤتمر كلية التربية الأساسية في مجال العلوم الإنسانية والتربوية والنفسية)
وتحت شعار (نحو رؤية إنسانية وتربوية رائدة لبناء مجتمع معرفي متكامل)
يومي الاحد و الاثنين 14-2026/6/15

الامبراطورية الاسبانية في ظل حكم آل هابسبورغ

م.م. اسيل طالب جبار
وزارة لتربية/ مديرية تربية الكرخ الاولى
Aseeltalib416@gmail.com

مستخلص البحث:

يتناول البحث تطوّر الإمبراطورية الإسبانية في عهد أسرة هابسبورغ، مبرزاً عوامل قوتها مثل التوسع الاستعماري والثروات القادمة من العالم الجديد، إلى جانب دور السلطة المركزية كما يناقش التحديات التي واجهتها، كالأزمات الاقتصادية والصراعات الأوروبية، ومروراً إلى أن التوسع المفرط وسوء الإدارة أسهما في تراجعها وفقدان مكانتها الدولية، فضلاً عن ذلك صعود الملك فيليب الثاني(Philip II)، وهو من عائلة آل هابسبورغ، إلى العرش الإسباني الذي حكم إمبراطورية شاسعة ومتنوعة بين عامي (1556-1598)، وكان عليه مواجهة العديد من التحديات، بما في ذلك الحروب الدينية، اذ كانت أوروبا في ذلك الوقت غارقة في صراعات دينية بين الكاثوليك والبروتستانت اذ كان فيليب الثاني متعصباً كاثوليكياً، دخلت اسبانيا في صراع ومنافسة مع انكلترا اذ كانت إنكلترا قوة بحرية صاعدة وعلى الرغم من التحديات التي واجهها، حقق تلك الامبراطورية ولاسما في عهد فيليب الثالث والرابع العديد من الإنجازات خلال حكمهم للإمبراطورية الإسبانية، منها توسيع الإمبراطورية الإسبانية، وقاموا باكتشاف واستعمار أراضٍ جديدة في أمريكا وآسيا كما شهدت الإمبراطورية نهضة ثقافية كبيرة خلال حكم آل هابسبورغ ، حيث برز العديد من الفنانين والكتاب والعلماء الإسبان الذين حققوا شهرة عالمية.

الكلمات المفتاحية : الامبراطورية الاسبانية_ قشتالة_ فيليب الثاني_ الارمادا.

المقدمة:

تُعدّ الحقبة التي سيطرت فيها عائلة آل هابسبورغ على العرش الإسباني (1516-1700) مرحلة حاسمةً في تاريخ الإمبراطورية الإسبانية، شهدت هذه الحقبة ذروة توسع الإمبراطورية وسيطرتها على أجزاء واسعة من العالم، كما شهدت أيضًا العديد من التحديات والتحولات الداخلية والخارجية، تسعى هذه الدراسة إلى تقديم تفاصيل لثلاثة ملوك حكموا آل هابسبورغ الإمبراطورية الإسبانية، مُتطرقةً إلى جوانب سياسية واقتصادية وعسكرية وثقافية تهدف الدراسة إلى تقييم إنجازات آل هابسبورغ وتأثيرهم على مسار تاريخ الإمبراطورية، كما تسعى إلى فهم التحديات التي واجهوها والعوامل التي أدت إلى تراجع الإمبراطورية في نهاية عهدهم، في منتصف القرن السادس عشر، كانت الإمبراطورية الإسبانية في أوج قوتها، كانت تمتلك أراضي شاسعة في أوروبا وأمريكا وأفريقيا، وكانت قوة عسكرية وسياسية واقتصادية مهيمنة في عام 1555.

المبحث الاول :التطورات السياسية والاقتصادية في عهد الملكين شارل الخامس وفيليب الثاني

خاضت الإمبراطورية الإسبانية العديد من الحروب الطويلة والمكلفة، مما أدى إلى استنزاف مواردها المالية والبشرية وكذلك واجه آل هابسبورغ صراعات داخلية مع النبلاء والطبقة الكهنوتية بعد اختيار شارل الأول عام 1519 إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة بأسم الإمبراطور شارل الخامس(Charles V) [i]. ثارت قشتالة ضده لأنها عدت ذلك جرحاً لشعورها الوطني، ولأنها كانت تريد ملكاً إسبانياً وليس مشاركة في إمبراطور أجنبي لا يعرف لغتها ولا تقاليدها القديمة، لذلك فإن وقوع اسبانيا تحت حكم آل هابسبورغ بزعامة شارل الخامس كان يعني مشكلتين لها، هما غياب امبراطوري طويل عن قشتالة، وتضحية بمصالحها الضخمة لصالح السياسات الإمبراطورية في المجالين السياسي والاقتصادي ولاسيما عندما ظهر ذلك واضحاً بتوزيع شارل الخامس المناصب الحساسة في قشتالة على بطانته من الفلمنكيين (وهم سكان شمال بلجيكا يتحدثون اللغة الهولندية قام الملك بتقريبهم واعطاهم مناصب مهمة وفضلهم على السكلن الاصلين) وكانوا لا يفهمون مشكلات قشتالة لاسيما وممتلكاتها فيما وراء البحار عامة والمشكلة الأخرى عبء مالي جديد إلى خزينة قشتالة التي شهدت في عامي(1512 -1516) زيادتين هائلتين في نسب الضرائب لأن شارل الخامس طالب قشتالة بالأسهام في تسديد نفقات انتخابه البالغة(800000) دوقية ذهبي التي اقترضها من آل فوكر وفي أول زيارة له لقشتالة دعا برلمانها للموافقة على منحه مبلغاً قيمته نحو(500000) دوقية لتسديد تلك النفقات. ان الاقتصاد الاسباني في القرن السادس عشر كان يعتمد جوهرياً على الزراعة ومع ذلك كانت الطبيعة الزراعية تتباين بشكل ملحوظ إذ توجد مناطق رطبة في الشمال كما في غاليسيا كانتابريا، وهنالك مناطق تتميز بمناخها القاري وتتميز بقلة الأمطار وكثرة نباتات السهوب فيها. وأخيراً توجد مناطق جافة لكنها تتصف بمناخها المعتدل المشابه لمناخ بلدان البحر المتوسط مثل الأندلس والوادي الكبير في الجنوب[ii].

ويمكن القول تم اعتماد ذلك الاقتصاد على تصدير تلك المنتجات أكثر من اعادة تصنيعها في داخل اسبانيا إن اكتشاف العالم الجديد(اكتشاف امريكا) أدى إلى احداث ضغط اقتصادي هائل على اسبانيا في مطلع القرن السادس عشر [iii]، لان ذلك الاقتصاد لم يكن مؤهلاً لتلبية حاجات العالم الجديد المتزايدة من الاغذية والملابس والأدوات وكافة عناصر الصناعات الأولية، ولذلك أدى هذا الضغط، إلى أن يتوجه التجار والصناع الأسبان نحو أوروبا لسد تلك الاحتياطات، مما جعل اسبانيا، وقشتالة بالذات مجرد **" محطة توزيع "** لتلك البضائع الأوربية واعادة تصديرها إلى العالم الجديد مقابل الحصول على المعادن المكتشفة هناك في مناجم البيرو وشمال قارة أمريكا الجنوبية. الا أن تلك المعادن الثمينة عملت على زيادة الانفاق الحكومي في قشتالة وإتباع سياسات إمبراطورية من قبل الإمبراطور شارل الخامس خارج امكانيات آية دولة معاصرة له آنذاك، مما أدى به إلى اللجوء إلى سياسة الاقتراض من البيوتات المالية الأوربية والاسبانية وبنسب فوائد مبالغ بها حتى أن الخزينة الاسبانية أعلنت إفلاسها لأكثر من أربع مرات خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر[iv]، إن هذا التدهور المالي في السنوات المبكرة من حكم شارل الخامس سرع بظهور تنبؤات متشائمة حول

التأكد من تحطم السفينة المالية ولكن في الحقيقة أنه لم يكن حتى عام ١٥٥٧، عندما قام فيليب الثاني بمناقشة والده بأن افلاساً متوقعاً قد تحقق فعلياً، وحتى بعد ذلك فأن مناشدات شارل الخامس لسخاء رعاياه ولجوءه المستمر الى القروض من الصيارفة نجح نوعاً ما في تجنب لحظة كارثة الإفلاس، ولكن الثمن الذي دفعه من اجل ذلك كان ثمناً يمثل تدميراً لأي محاولة لتنظيم المالية الإمبراطورية على قاعدة عقلانية وتخطيط برنامج اقتصادي متماسك للممتلكات المتنوعة في الإمبراطورية[v].

أصبحت حالة الخزينة الاسبانية في افلاس شبه دائم طيلة المدة (1552 - 1659) بسبب السياسة المالية الجائرة لآل هابسبورغ ، اذ أعلنت فلاسها رسمياً في الأعوام (1557، 1596) . ومنذ صعود فيليب الثاني إلى العرش عام ١٥٥٦ تضاعف دين الخزينة الاسبانية من (60000000) دوقية عام 1556 إلى(80000000) دوقية عام 1598[vi]

الملك فيليب الثاني

ولد فيليب الثاني، أو فيليب الحكيم، في إسبانيا في 21 أيار عام 1527 م، وهو ابن الإمبراطور شارل الخامس إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والدته هي إيزابيلا(Isabella) البرتغالية. ورث عن والده ممتلكات كبيرة وحصل على ممتلكات أخرى عن طريق الغزوات ، ففي عام 1540 ، وهو في سن الثالثة عشرة، من عمره عينه والده حاكما على ميلانو(Milan)، وفي عام 1543 ، ثم أصبح وصيًا على عرش اسبانيا، وفي عام 1554 عينه والده حاكمًا لمملكة نابولي وصقلية المزدوجة، وبعد سنتين تنازل له عن تاج إسبانيا فحكمها باسم الملك فيليب الثاني (1556 - 1598) [vii] عمل فيليب الثاني على تعزيز مكانة إسبانيا السياسية والعسكرية أيد الكثلكة بقوة، فأدى ذلك إلى نشوب انتفاضة الأراضي المنخفضة استمرت للمدة(1568 – 1609)، وإلى تورط الأسبان في حروب ضد العثمانيين للمدة (1560 - 1577)، وضد إنكلترا (1588-1598) في حرب الارمادا وفي عهده بلغت محاكم التفتيش(وهي محاكم دينية أنشت في اوروبا لغرض التحقيق في عقائد الناس ومعاقبة كل متهم مخالفاً للتعاليم المسيحية) ذروتها إنجازاته العمرانية قصر الأسكوريا الذي بناء بين عامي(1563 -1584) ومن اعماله الإدارية نقله البلاط الملكي من طليطلة إلى مدريد لتوسطها الجغرافي ومناخها وثروتها البشرية والاقتصادية في عام١٥٦١، ورث فيليب الثاني عن والده شارل الخامس التعصب أيضًا، وورث الجنون عن جدته لأبيه جوانا لا لوكا (المجنونة)، فالتعصب والجنون في عروقه، والعقيدة والاستبداد في ميراثه[viii]، تربي على يد قساوسة ونساء أغرقوه في التدين وأقنعوه بأن الكنيسة الكاثوليكية هي السند الذي لا غنى عنه للفضيلة والملكية تلقى فيليب الثاني في طفولته وصباه تربيةً ملكيةً ممتازة، أدت إلى تبلور شخصيته المثقفة التي أهلته لحكم الإمبراطوري بمساعدة مستشارين وبمراقبة والده ، فقد تزوج فيليب الثاني أربع مرات كان الزواج الأول في عام 1543، من ابنة خاله الأميرة ماريا مانويلا البرتغالية (Maria Manuela)، (1527 - 1545) ، التي ماتت بعد أن أنجبت له ابنه دون كارلوس أما زواجه الثاني فقد كان زواجًا سياسيًا بهدف تأمين قوة إسبانيا في الأراضي المنخفضة من تدخل إنكلترا، فقد اضطر إلى الزواج من ملكة إنكلترا الكاثوليكية ماري تيودور(Mary Tudor) لينجب

منها أولادًا يبقون بإنكلترا ضمن نطاق العقيدة الكاثوليكية ولذلك سافر إلى إنكلترا في عام1554، وتزوجها على الرغم من أنها كانت اكبر منه بإحدى عشرة سنة ولأنها لم تنجب عاد في السنة التالية إلى الأراضي المنخفضة [ix] وكان زواجه الثالث في عام 1559، بهدف إقامة بعض روابط الصداقة مع فرنسا، فتزوج إليزابيث قالوا(Elizabeth they said) ابنة ملك فرنسا هنري وتزوج للمرة الرابعة والأخيرة الأميرة أن(Princess Anne) النمساوية عام1580، وهي ابنة ماكسيميليان(Maximilian) إمبراطور النمسا. ورزق من هذا الزواج بخمسة أبناء، ماتوا كلهم صغارا باستثناء فيليب وعندما ماتت أن في عام 1580، لم يتزوج فيليب الثاني بعدها حتى وفاته في عام 1598، وبعدها كرّس فيليب الثاني عواطفه لبناته، ولاسيما إيزابيلا كلارا يوجينا(Isabella Clara Eugenia) صديقته المقربة وعزاءه الكبير في سنوات شيخوخته وتذكر بعض المصادر التاريخية ان فيليب في حياته وحتى بعد وفاته مثيرًا للجدل، فقد كان محبوباً في إسبانيا ومكروهاً في إيطاليا، ومتهما بمعاداة المسيحية في أوروبا البروتستانتية، وقد أدى تعصبه الديني ضد كل ما هو غير كاثوليكي، ولاسيما ضد المسلمين والبروتستانت ولكنه في حياته الخاصة كان يحب الدعابة والنكتة ويضحك من كل قلبه وكان يجمع الكتب بذوق كبير، ولكنه أثر الفن على الأدب[x]

اولا: الاوضاع الداخلية والخارجية في عهد فيليب الثاني

أ- وصية والده الإمبراطور شارل الخامس السياسية

في شهر كانون الثاني 1548 أعدَّ الإمبراطور شارل الخامس دراسة شاملة للمشكلات التي قد يواجهها ابنه فيليب الثاني بهدف المحافظة على ميراثه، وقد عُرفت تلك الدراسة باسم **"الوصية السياسية"** (Political Testament)، وتُعرف أحيانًا باسم وصية شارل السياسية وكان المؤرخ الإسباني مانويل فرنانديز ألفاريز (1921-2010) أول من نشر هذه الوصية في كتابه الشامل مجموعة وثائق شارل الخامس [xi] ولقد تضمنت الوصية السياسية مجموعة توجيهات كان الهدف منها توجيه فيليب الثاني لمعالجة التحديات التي ستواجهه في أوروبا وخارجها وقد بدأ الإمبراطور شارل الخامس وصيته بحث ابنه على تسليم أمره وتصرفاته **"لإرادة الرب"**، وجعل الدفاع القوي عن العقيدة الكاثوليكية مهمته الأول وأبدى أسفه عن كلفة الحروب الكثيرة التي خاضها في أماكن متعددة للدفاع عن الإمبراطورية، مشيرًا إلى أنه حافظ عليها، ودافع عنها، وأضاف إليها أراضي جديدة ومهمة وأوصى ولده بضمان السلام لها، وإبعادها عن الحروب وبعد ذلك بدأ بإجراء مسح شامل ودقيق للغاية عن الوضع الدولي، وعن السياسة المناسبة للمحافظة على سلامة ميراث ابنه [xii] واستنادًا إلى ذلك، نصح الإمبراطور شارل الخامس فيليب الثاني بالاحتفاظ بصداقة وثقة شقيقه (أي شقيق شارل) ووريثه بلقب الإمبراطور فرديناند(Ferdinand)، ونصحه كذلك بأن يستشيره في القضايا المهمة، وأن يطلب مساعدته لضمان سيطرته على شمال إيطاليا والأراضي المنخفضة، وإبقاء خطوط الاتصالات مفتوحة بينهما وتكشف مراسلات فيليب الثاني مع عمه الاحترام المتبادل بينهما، وسعيهما لمتابعة سياسات متوافقة بقدر الإمكان وحينما توفي فرديناند حزن عليه فيليب الثاني حزنا شديدًا، وبقي لمدة طويلة يذكره بخير؛ أما في البرتغال، فقد بقي فيليب الثاني يدعم ابن شقيقته

الشاب، سيباستيان(Sebastian)، ولكن بعد مقتل الأخير في معركة القصر الكبير بالمغرب في عام 1587، استولى على عرش البرتغال الذي بقي ينتقل لورثته حتى عام 1640، وفي دول البلطيق (بولندا والدنمارك والسويد)، بقي فيليب الثاني يولي اهتماما خاصا لضمان إمداد ممتلكاته بالحبوب من جهة، ومراقبة الوضع في الأراضي المنخفضة، ولاسيما بعد عام 1572، من جهة أخرى [xiii]

ب- الازمات الاقتصادية المتكرره

كان الإمبراطور شارل الخامس يخشى كثيرًا أن يواجه ابنه مشكلة قلة الموارد المالية اللازمة للدفاع عن ممتلكاته الواسعة التي كانت جميعها تموّل حروبه، وقد لا تتمكن من الاستمرار بدفع الضرائب بالمستويات المرتفعة نفسها. ويعود أول تحذير من الإمبراطور لفيليب الثاني بشأن هذه المسألة إلى عام 1543، حينما أبلغه أن خزينته ستكون في وضع حرج سيسبب له الكثير من المضايقات عندما يخلفه وسرعان ما تدهورت الأمور عندما تنازل عن العرش؛ إذ ترك ديونا قصيرة الأجل بقيمة سبعة ملايين دوكة (تعادل) نحو سبع مرات العائدات السنوية لقشتالة عليها فوائد دفع استنزفت كل خزينة الدولة وأدى عاملان إلى مضاعفة الأزمة المالية التي واجهت فيليب الثاني في بداية حكمه الأول، إن ممتلكاته شهدت في معظم سنوات حكمه حروبًا مستمرة وعلى أكثر من جبهة واحدة – ضد العثمانيين (1560-1574)؛ وضـــد الهولنديين (1572- 1577)؛ وضد إنكلترا والهولنديين (1585-1589)؛ وفي فرنسا (1589-1598). أما الثاني، فهو إن كلفة القتال في جميع الجبهات كانت تتصاعد باستمرار[xiv]حتى أن أحد القادة العسكريين قدَّر الكلفة الإجمالية للقدرة العسكرية الإسبانية في تسعينيات القرن السادس عشر بثلاثة أضعاف ما كانت عليه في عهد والده لعدد مساو من القوات والتجهيزات [xv] وبسبب هذا الإنفاق الهائل للعمليات العسكرية كان الجيش الذي نشر في الأراضي المنخفضة ضد فرنسا للمدة(1552-1559) يكلف الخزينة الإسبانية مليوني دوقة سنوياً؛ وكان جيش الفلاندرز يكلف نحو ثلاثة ملايين دوقة سنوياً [xvi] وربما هذا هو السبب المباشر الذي دفع فيليب الثاني لاتخاذ خطوته الخطيرة في عام 1557، بتعليق كل المدفوعات من خزينته؛ وهو الإجراء الذي سمّى مرسوم الإفلاس ، والبدء بمناقشة إعادة جدولة تسديد الديون وعندما وجد أن إجمالي ديون خزينة قشتالة بلغ (29) مليون دوقة في عام 1560 ، كرر الإجراء مرةً أخرى، ولكن الاقتراض الحكومي بقي يتصاعد حتى عام 1574، ولاشك أن العبء الرئيس لمراسيم الإفلاس هذه وقع على كاهل قشتالة التي استمرت بتأدية تسديد الديون طوال حكم فيليب الثاني، على الرغم من أن ديونها تضاعفت أربع مرات [xvii]

ثانياً: الحفاظ على الارث الاسباني

كان الاعتبار المهم الآخر الذي حدد سياسة فيليب الثاني الخارجية هو المحافظة على سمعة إسبانيا وهيبتها الدولية. وكان الإخفاق في المحافظة على هذه السمعة يقلقه كما كان يقلق والده من قبل. كان يؤمن أن ضعفه في منطقة ما سرعان ما سيعرض نفوذه وهيبته إلى الخطر في مكان آخر؛ فبعيد وفاة زوجته ماري تيودور في عام 1558، مباشرةً، نصحه أحد الوزراء بأنه لو فشل في استعادة إنكلترا، فإن ممتلكاته في الأراضي المنخفضة، وبالتالي في إيطاليا والعالم الجديد، ستتعرض لخطر كبير[xviii]

وعندما خسر نفوذه في إنكلترا وخروج الأخيرة عن فلك آل هابسبورغ ، ذكره وزير آخر بأنه لو خسر الأراضي المنخفضة، فستتعرض ممتلكاته الأخرى في العالم الجديد والبحر المتوسط، وكذلك في شبه الجزيرة الأيبيرية، لهجوم من البر والبحر. وعلى الرغم من ذلك، لم تكن سياسة فيليب الثاني الخارجية كلها مستندة إلى توجيهات وضعت في عهد والده؛ فقد فقدت إيطاليا والأراضي المنخفضة أهميتها المالية والاقتصادية والبشرية لمصلحة مناطق جديدة في شبه الجزيرة الإيبيرية والعالم الجديد، أخذت تمثل، بمرور الوقت، عماد قوته وفي عام 1570 ، أكد أمام مجلس التشريع في قشتالة الكورتيز(Cortez) على ضرورة وجوده في تلك الممتلكات لا من أجل خيرها وصلاحها فحسب، وإنما من أجل توفير حاجات الدول الأخرى أيضا، لأن تلك الممتلكات تمثل المركز والقلب والجزء الرئيس لكل الممتلكات الأخرى على حد قوله[xix] وحينما ألحت عليه مجموعة من الكرادلة في عام 1573، للإقامة في إيطاليا لتوجيه حملة ضد العثمانيين، أو في الأراضي المنخفضة لمراقبة إدارة الحرب هناك، ذكرهم سفير إسبانيا في روما خوان دي زونيغا ريكوسنسي بأنه لما كان الملك يحكم ممالك ودولاً كثيرة جدا، ولأن رخاء العالم المسيحي بأسره لن يستريح إلا بالحفاظ عليها وعلى حياة الملك، فلا يكفي أن تكون الرحلة مفيدة لشؤون إيطاليا أو الأراضي المنخفضة إن لم تكن مفيدة للإمبراطورية بأسرها وعلى الرغم من أن هذا التضارب بين مصالح إسبانيا العليا وممتلكاتها قد قوض جهود انتهاج سياسة فاعلة، إلا أن الخط العام لها أنها عكست ملامح السياسة الخارجية التقليدية لإسبانيا وأهدافها؛ وأول تلك الأهداف وأوضحها قناعة فيليب الثاني بأولوية مصالح إسبانيا على مصالح ممتلكاتها[xx]

ثالثاً: الدفاع عن المذهب الكاثوليكية

كان الدفاع عن الكنيسة الكاثوليكية ضد أعدائها أحد أهم عوامل السياسة الإسبانية في عهد فيليب الثاني، وأحد أهم أهدافها في الوقت نفسه، سواء في داخل أوروبا أو خارجها. وقد تطلب ذلك من فيليب الثاني استخدام القوة ضد المسلمين، وصدّ المد الإسلامي في البحر المتوسط وحماية المواقع المسيحية المتبقية في الشرق، إن لم يكن توسيعها. وعلى الرغم من أنه عقد صلحا مع فرنسا في عام 1559، إلا أنه أوقف مفاوضات الهدنة مع العثمانيين، وخلال الثمانية عشر سنة التالية وضع الدفاع عن البحر المتوسط فوق كل أولوياته الخارجية الأخرى[xxi] وحتى انتفاضة الأراضي المنخفضة أخفقت في تغيير هذه السياسة، على الرغم من أن دوق ألبا وغيره حاولوا إقناعه بضرورة عقد صلح مع العثمانيين من أجل التركيز على أعدائه في الداخل. ومع أنه تمكن من تأمين هدنة دائمة مع العثمانيين في آب عام 1580، إلا أنه استمر حتى نهاية عهده يفكر بإلحاق الهزيمة بهم عن طريق التحالف مع الفرس في الشرق واليونانيين في البلقان ومن جهة أخرى، كان فيليب الثاني يعارض البروتستانتية بشدة مثلما يعارض الإسلام وفي 7 أيلول 1560 أبلغ وزيره الكاردينال غرانفيل بضرورة الاهتمام بالعالم الكاثوليكي وبعد ست سنوات، أي في عام 1566، ذكر البابا بيوس الخامس (Pius) (1566-1572) بحماية ممالكه في حربه المستمرة ضد المسلمين ودفاعه عن العالم المسيحي، وأعلن في عدة مناسبات عن استعداده للتضحية بكل ممتلكاته بدلاً من تعريض سلامة

العقيدة الكاثوليكية للخطر وفي شهر آب من السنة نفسها أكد له بأنه على استعداد لأن يفقد كل ممتلكاته ويضحي بمئات الأرواح دون أن يسمح بأدنى ضرر يصيب الكنيسة الكاثوليكية وفي عام 1590 طلب منه الكاردينال غرانفيل(Granville) تقليص حروبه في فرنسا والأراضي المنخفضة والمحيط الأطلسي، ذكره أن تلك الأمور لا يمكن إسقاطهالأنها تتضمن قضية الدين، الذي يجب أن يتقدم على كل شيء[xxii] ولاشك أن خلف تلك التأكيدات بضرورة سيادة العقيدة الكاثوليكية على الاعتبارات السياسية تكمن فلسفة محددة مضمونها أن فيليب الثاني كان يشعر أن لـــه وصاية مباشرة لإعلاء شأن العقيدة الكاثوليكية[xxiii]

رابعاً: الموريسكيين في عهد فيليب الثاني

في عهد فيليب الثاني فقد تم ربط الوجود الموريسكي بالصراع العثماني الإسباني، واتهم الموريسكيون بربط علاقات بالعثمانيين وبالقراصنة الذين كانوا يهاجمون السواحل والسفن الاسبانية انطلاقا من إفريقيا الشمالية، وخلال العام 1566، صدرت مراسيم تمنع استعمال اللغة العربية، وتحضر ارتداء أنواع معينة من الملابس، وعددًا من العادات التي كان يحرص عليها الموريسكيون، فاندلعت ثورة عنيفة بقيادة محمد بن أمية وهي الثورة التي انتهت بتشريد موريسكيي غرناطة، وجبال البشرات وجبال رندة في أراضي قشتالة، وبذلك توزع الموريسكيون على مناطق كثيرة وأصبح المشكل الموريسكي عاما، فاقترح البعض تهجير الموريسكيين إلى خارج إسبانيا لكن هذا الاقتراح تأجل تطبيقه عدة مرات بسبب ضغط النبلاء الأراغونيين والبلنسيين، وبسبب الظروف الداخلية والخارجية غير المساعدة[xxiv] وهو ما جعل أحد الكتاب الغربيين يعتبر أن الأسباب الاقتصادية أدت أكثر من غيرها إلى وقوع الخلاف في أوساط الطبقة الوسطى حيث يقول إن **"الطبقات الوسطى الأسبانية من حرفيين في المدن وزراع هي التي كانت ضد المسلمين، ولأسباب اقتصادية أكثر منها دينية"** وإذا أردنا أن نضيف إلى تلك الأسباب أوضاعا أخرى ساعدت في زيادة ذلك التذمر من المسلين الأندلسيين، فنقول أنه حدثت مجاعة في كتالونيا وفي أراغون بسبب ضعف الإنتاج الزراعي الذي حدث خلال عامي(1567 - 1568) [xxv] كما شهدت البلاد تطور ديمغرافيا لدى المسلمين أكثر من المسيحيين، إذ ارتفعت نسبة النمو وهو ما كان يتخوف منه الإسبان أن ترجح كفة المسلمين السكانية على حسابهم [xxvi] ويضيف البعض أن الحركة الدينية الإصلاحية البروتستانتية قد حفزت المسلمين في إسبانيا على الثبات والتمسك بعقيدتهم، وبالتالي شجعتهم على الثورة فقد ذهب وفد في عام (1567 إلى اسطنبول واستقبل من طرف شخصيات مسؤولة وعلماء وكان السلطان سليم الثاني (1566-1574) قد فكر في الاستعانة بفرنسا للقيام بعمل مشترك ضد إسبانيا، غير أن الظروف التي كانت تعيشها الدولة في حروبها على ضفاف البحر الأسود، وعلى الحدود الإيرانية لم تسمح له للقيام بنجدتهم[xxvii] استنجد الأندلسيين بعلج علي وعندما تولى علج علي الحكم في الجزائر في عام 1568، أعطى للمسلمين الأندلسيين دفعا للقيام بثورتهم اعتمادا على الدعم الجزائري فقد أرسل الأندلسيون أحد رجالهم من مدينة ناريا (Narilla) يدعى باترال إلى مدينة الجزائر مرتين المقابلة علج علي لإطلاعه عن مشروع ثورتهم، وطلب المساعدات الضرورية التي كانوا يحتاجونها وقد

أبدى علج علي استعداده لتقديم المساعدات إليهم، ولهذا الغرض اجتمع عدد من سكان مدينة الجزائر في أحد المساجد، وتمكنوا من جمع الأسلحة وتجنيد الرجال الراغبين في المشاركة في الثورة، وقد بلغ عددهم أربعة آلاف رجل لقد كان من المقرر أن تبدأ الثورة في يوم الخميس المقدس لدى المسيحيين غير أن السلطات الإسبانية اكتشفت المخطط مما أدى إلى تأجيل الثورة إلى موعد آخر[xxviii] ورغبة منه في تشتيت القوات الإسبانية ومساندة المسلمين هناك حشد علج علي أربعة عشر ألف جندي مسلحين بالبنادق، وستين ألف رجل من السكان ومعهم أربعمائة جمل محملة بالبارود، ثم أرسلها إلى مزغران للانطلاق منها إلى وهران، وكان القصد من ذلك الهجوم هو إشغال الإسبان في وهران عن تحرك سفنه المكلفة بمساعدة الثوار الأندلسيين وفي نفس الوقت أرسل إلى السواحل الإسبانية أربعين سفينة، فسلكت طريقها إلى السواحل الواقعة في منطقة المرية بهدف مساعدة المسلمين وحمايتهم، غير أن السلطات الإسبانية اكتشفت أمر الثورة، فعثرت على مخازن السلاح، وألقت القبض على بعض الثوار، ولم يتمكن الأسطول الجزائري من إنزال حمولته من الرجال والسلاح إلى البر، وبالتالي لم يتمكن من تقديم العون لهم هذه المرة ، وعندما حلت أعياد الميلاد في كانون الاول 1568، أعلنوا عن ثورتهم وذلك في قرية بيذنار في وادي لكون تحت زعامة هيرناندو دي كوردوبا (Hernando de Cordoba) الذي حمل اسما عربيا وهو محمد بن أمية[xxix] كان فيليب الثاني مشغولاً في إخماد ثورة غرناطة وتمثلت خطته في القضاء عليها على النحو التالي

1- وضع على رأس القيادة العامة أخاه غير الشرعي دون خوان، وذلك في 1569.
2 - انتقال الملك بنفسه في شهر ديسمبر إلى قرطبة ليكون أكثر قربا من مكان الثورة.
3- الحد من انتشار مدى الثورة إلى أقاليم المسلمين المنصرين، وذلك بتهدئتهم عبر أسيادهم، وعدم التعرض لهم، أو عن طريق القوة.
4 - عزل الثوار المعتصمين في جبال البشرات.
5- التفاوض مع قائد الثوار الحبقي، حيث توصل الطرفان إلى العفو التام عن جميع المسلمين الثائرين، وأن يقدم الثائرون أسلحتهم على أن يخضعوا لهم في ظرف عشرين يوما ويسمح لهم بارتداء ملابسهم الوطنية. عودة المتطوعين من الجزائر وبلاد المغرب الأخرى إلى بلادهم دون إزعاج[xxx]

فقد لجأ الملك فيليب الثاني إلى إصدار قرار النفي بخصوص المورسكيين كإجراء نهائي لإنهاء الثورة وذلك بعزل الذين ظلوا معتصمين في الجبال، وبهذه الطريقة تم تهجير أكثر من مائة وخمسين ألف شخص وقد ترتب عن هذه الثورة نتائج عديدة نذكر منها تشتيت الغرناطيين في قشتالة كلها إيقاظ مشاعر السكان في تلك المناطق التي كانت حتى تلك اللحظة تتميز بالعفوية واللامبالاة تطور الصراع بصورة شديدة، واستمراره لوقت طويل تعقد الموقف بتدخل أجنبي[xxxi]

خامساً: حرب الارمادا

أ- أسباب حرب الأرمادا

كانت العلاقات الإنكليزية الاسبانية في بداية عهد الملكة إليزابيث الأولى (1558-1603) طيبة، وقد طلب فيليب الثاني ملك اسبانيا الزواج من الملكة في عام 1559، لكن إليزابيث وعلى الرغم من أنها أحست بشيء من الرضا في البداية، ولاسيما إنه كان أعظم عاهل في العالم المسيحي، لكنها رفضت هذا الطلب خوفاً من أن تتحول انكلترا إلى دولة كاثوليكية تابعة لاسبانيا [xxxii] بدأت العلاقات الودية بين البلدين تتعقد شيئاً فشيئاً بسبب المنافسة البحرية، فمنذ عام 1567، بدأ البحارة الإنكليز وفي مقدمتهم جون ها وكنز وابن عمه فرانسيس دريك أشهر البحارة الإنكليز في ذلك العهد بمهاجمة الموانئ الإسبانية وممتلكاتها في المحيط الأطلسي والقارتين الأمريكيتين كانت الملكة إليزابيث ولسنوات عديدة تقود الدبلوماسية الانكليزية بمهارة ولاسيما مع الدول المنافسة لبلادها اسبانيا وفرنسا، ولجأت في أوقات كثيرة إلى الحوارات السلمية، إلا أنها وبحلول منتصف عام 1580، بدأ واضحاً وبشكل جدي أنه لا مجال لتجنب المواجهة العسكرية المباشرة مع اسبانيا[xxxiii]، وفي ذلك الوقت وصلت أنباء إلى لندن أن الملك الاسباني فيليب الثاني كان عازماً على غزو انكلترا، ويقوم بتجهيز أسطول كبير في الأراضي الاسبانية ويعزم على إلحاقه بقواته الموجودة في الأراضي المنخفضة بقيادة الدوق بارما(Barma) استعداداً للهجوم على انكلترا البروتستانتية واحتلالها، وعلى الرغم من عدم رغبة إليزابيث بالإنفاق على الجوانب العسكرية إلا أن ذلك لم يمنعها خلال مدة حكمها من العمل على بناء وتجهيز أسطول قوي عالي التسليح مع ما يمكن إضافته من قوارب التجار ووضعت تلك القوة على أهبة الاستعداد لمواجهة أي خطر محتمل يبدو أن الأسطول الذي أمر الملك فيليب الثاني بأن يرسل باتجاه الأراضي المنخفضة لينظم إلى القوات الاسبانية الموجودة هناك ليغزو انكلترا لم يتمكن من الإبحار بسبب شغل اسبانيا بضم عرش البرتغال بعد موت ملكها سباستيان إلى التاج الاسباني[xxxiv] بعد ذلك بدأ الملك فيليب الثاني ببناء الأرمادا في كانون الثاني 1586 ، فبنى سفناً حربية جديدة، وسلح السفن الموجودة تسليحاً ثقيلاً، وجمع خلال تلك المدة المؤن والمعدات من موانئ اسبانيا والأراضي المنخفضة والبرتغال وإيطاليا، وأنفق ذهب العالم الجديد الأمريكتين وفضتها على ذلك الأسطول [xxxv] وفي نيسان 1586، أغار فرانسيس دريك وهو يقود ثلاثين سفينة على السفن الاسبانية الجاثمة في مرفأ قادس(Cadiz)، وتمكن من تدمير جميع السفن الاسبانية هناك، وعلى الرغم من ذلك بقي الملك فيليب الثاني محافظاً على هدوئه ويعمل على إعداد أحواض السفن ومعامل الحدادة ومصانع الأسلحة، من أجل الاستعداد للحرب التي كان يعدها حرباً مقدسة وكان رجال الملك فيليب الثاني كما يقال عنهم تحترق قلوبهم بحماسة على أنهم محاربون صليبيون، وقد أطلقت على سفن الأرمادا أسماء هي: مريم، والحواريون، والقديسيون لكسب مشاعر وعواطف الناس كل تلك الاستعدادات لم تصل العلاقات بين البلدين من التدهور إلى حد إعلان الحرب إلا أن الأمور بدأت تأخذ منحى آخر شيئاً فشيئاً [xxxvi]، وهكذا استمرت المناوشات سجالاً بين البلدين تارة عن طريق المعارك البحرية الصغيرة في عرض البحر وتارة أخرى عن طريق الحملات الدعائية

التي توجهها إحدى الدولتين إلى الأخرى إلى أن انتهى الأمر بوقوع حرب الأرمادا التي تعد من أشهر المعارك البحرية على الصعيد الأوربي والعالمي، إذ كان لها أثر مباشر في أن تصبح انكلترا سيدة البحار ولمدة طويلة من الزمن اذ انهزم الاسبان هزيمة كبيرة عام 1588[xxxvii]

ب- نتائج حرب الأرمادا

تعد هزيمة الأرمادا الاسبانية واحدة من الأحداث الحاسمة في تاريخ أوروبا، وقد تركت هذه الحرب آثارها على مختلف نواحي الحياة الأوربية، ليس فقط في أيامها، بل للقرون والأجيال القادمة أيضاً يبدو أن هزيمة الأرمادا كانت نهاية لمشروع كبير يهدف إلى القضاء على الحركة البروتستانتية في انكلترا بشكل خاص، وفي القارة الأوربية عموماً، وبعكس ذلك فقد ضاعت من فيليب الثاني ملك اسبانيا فرصة محاربة البروتستانتية في انكلترا التي ثبتت أركانها في عهد الملكة إليزابيث الأولى، بل أكملت هزيمة الأرمادا عملية تحويل انكلترا إلى بلاد بروتستانتية، وإن آمال الكاثوليك الانكليز والاسكتلنديين تحطمت مع تحطم الأرمادا، وانتهت أحلام الكنيسة الكاثوليكية الرامية إلى التخلص من الملكة إليزابيث الأولى، كما وجد اتجاه في صفوف الكهنة الكاثوليك وأتباعهم يدعو إلى الخضوع إلى السلطة الزمنية مقابل الاعتراف لهم بحرية الوجدان [xxxviii] كانت هزيمة الأرمادا بداية لتراجع سلطة ونفوذ الإمبراطورية الاسبانية في أوربا والعالم الجديد، وزوال احتكارها للتجارة والمستعمرات، وفتحت أمريكا الشمالية أمام حركة التجارة والاستعمار الانكليزي، كما ظهرت قوى بحرية جديدة ولاسيما انكلترا وهولندا بعد نيل استقلالها عن اسبانيا فيما بعد اللتين حلتا محل اسبانيا في السيادة والتفوق في البحار، وأصبح العلم الانكليزي يرفرف بعد هذه الحرب عالياً في البحار، ووصلت التجارة الانكليزية إلى ابعد زاوية من العالم الجديد[xxxix] كان من نتائج حرب الأرمادا، حدوث تغير في الموقف الأوربي تجاه قضية الثوار في الأراضي المنخفضة، وقد احدث هذا التغير نتائج مهمة، فقد أثرت هزيمة الأرمادا على قوة اسبانيا وعظمتها فلم تعد الإمبراطورية الاسبانية فوق مستوى الهزيمة، فزال شبح خوف انكلترا من اسبانيا، وبعد أن تولى العرش في فرنسا هنري الرابع البروتستانتي عدو اسبانيا اللدود، تحالف مع انكلترا وهولندا ضد اسبانيا، وتبدد الأمل لدى الأسبان في تحقيق نصر على الثوار الهولنديين، وبعد أن تولى موريس ابن وليام الصامت قيادة الجيش الهولندي، الذي أظهر مهارة حربية كبيرة تفوق مهارة والده، تمكن الجيش الهولندي من تحقيق الانتصار على الجيوش الاسبانية[xl] ،وهكذا أفاد الهولنديون الخاضعون لحكم الأسبان فائدة مباشرة من هزيمة الأرمادا التي أدت إلى إغلاق الطريق البحري بين اسبانيا والأراضي المنخفضة [xli] استقرت انكلترا بعد حرب الأرمادا ، وأصبحت اسكتلندا دوله صديقة، كما أن سكان ويلز عدوا عائلة تيودور عائلة ويلزية، لان هنري السابع ملك انكلترا كان من أصول ويلزية، فضلاً عن إن انكلترا بعد أن زال خطر الأرمادا، استطاعت القضاء على الثورات التي حدثت في ايرلندا ومن نتائج هزيمة الأسطول الاسباني، أن ازدهرت الحياة الأدبية، إذ كان الشعر قد بدأ يزدهر قبل أن تصبح إليزابيث ملكة على انكلترا، على الرغم من أن الشعراء القدماء كانوا في بادئ الأمر يقلدون الشعراء الايطاليين، ولكن ما أن جاء عهد الملكة إليزابيث الأولى حتى وجد الشعراء المحدثون أنفسهم وعبروا

عما يجيش في نفوسهم ولم يعد لهم حاجة للتقليد، أما الفنون الأخرى فقد بلغت مرحلة جيدة من التطور والتقدم بعد هزيمة الأسبان، وكانت هذه نتيجة ما حل في انكلترا من سلام واستقرار سياسي، وهكذا أصبح الشعب الانكليزي صلباً متحداً، فيسهم وبقوة في بناء مملكته وحب ملكته وحب بعضهم بعضاً، متناسين الخلافات والأحقاد الدينية ومن آثار حرب الأرمادا، أن شهدت انكلترا انتعاشاً اقتصادياً وتكونت شركات للتجارة الخارجية [xlii]وكان من نتائج انتصار أسطول الملكة إليزابيث الأولى على الأرمادا ، اكتمال وحدة انكلترا القومية ضد العدو الأجنبي مما يساعد على التفاف جميع طوائف الشعب الانكليزية حول ملكتهم [xliii]

المبحث الثاني فيليب الثالث(Philip III)

ولد في مدينة فلنسيا، في 14 نيسان 1578 ، بمدريد إسبانيا يختلف كل الاختلاف عن أبيه، هو ابن الملك فيليب الثاني ملك إسبانيا والملكة آن النمساوية تزوج من مارغريت النمساوية(Margaret the Austrian) عام 1599، وأنجبا ثمانية أطفال اعتلى فيليب الثالث العرش عام 1598 بعد وفاة والده وقال عنه والده: "إن الله لم يرزقني ولداً يصلح لحكمه كان خجولاً ووديعاً، شديد العجز عن القيادة، وقد سلم كل سلطان الحكم ومتطلباته الى مستشاري وهم فرانشسكو جومزدي" [xliv]

اولا: المسالة المورسكية في عهد فيليب الثالث

بعد وصول فيليب الثالث إلى سدة الحكم عقب وفاة والده عام 1598 ، قام برحلة إلى إقليم بلنسية برفقة مستشاره فرانشسكو جومزدي(Francesco Jordi) الذي يعرف عنه اطلاعه الدقيق على المسألة المورسكية ومعارضته لطرد المورسكيين غادر الملك الإقليم عام 1599، وهو مطلع على الوضع الديموغرافي والسياسي بشرق إسبانيا، ولذلك بعث لرئيس أساقفة بلنسية خوان دي ريبيرا(Juan de Ribera) الذي كان مساندا لفكرة طرد المورسكيين يأمره فيها بمضاعفة الجهد لتنصير أكبرعدد من المورسكيين عن طريق الوعظ والتعليم الديني. أما رجال البلاط الإسباني، فقد كان أغلبهم ينظر إلى المشكل من وجهة نظر سياسية عسكرية واضعين نصب أعينهم إمكانية استغلال المورسكيين ضد اسبانيا من طرف قوة خارجية، وقد آزر هذا الرأي عدد من رجال الدين الذين كانوا يساندون فكرة الطرد، منهم الراهب الدومينيكاني خايمي بليدا [xlv] والأسقف خوان دي ريبيرا الذي التمس من الملك طرد المورسكيين مرتين، المرة الأولى في رسالة مؤرخة ب دجنبر 1601 قال فيها أنه إذا لم يطرد المورسكيون فسوف يرى ضياع إسبانيا في حياته"، والثانية المؤرخة في كانون الثاني عام 1602 ، وصف فيها المورسكيين بالهراطقة الذين خانوا الرب والملك أما واعظ الملك الراهب خيرونيمو خابييري (Jerónimo Javier)،[xlvi] فقد انتقد عام 1607 فكرة الطرد التي اقترحها الأسقف دي ريبيرا، بل اعتبره مسؤولاً عن فشل محاولات تنصير المورسكيين في بلنسية مناطق شرق إسبانيا، مما يؤكد أن البلاط الملكي الإسباني كان منقسمًا بين من يؤيدون الطرد ومن يؤيدون السير قدمًا في تنصير المورسكيين، لكن هذا الوضع تغير عام 1608، اذ أجمع أعضاء مجلس الدولة على فكرة الطرد [xlvii] يرى أنطونيو دومينيغيث أورطيث وبرنارد فانسون أن السبب هو تغير موقف مستشار الملك فرانسيسكو (دوق ليرما)، الذي ربما أقنع أعضاء المجلس وخصوصا

النبلاء الذين كانوا يحصلون من المورسكيين على منافع ومداخيل مادية وعينية في إطار العلاقات الفيودالية بأنهم سوف يعوضون عن خسائرهم عن طريق السماح لهم بالاستيلاء على أملاك وعقارات المورسكيين في حال طردهم. وبالإضافة إلى الترغيب، استعمل دوق ليرما الترهيب على اعتبار أن المورسكيين يشكلون خطرًا على النبلاء وعلى كل إسبانيا لأن عددهم كان يتزايد باستمرار خصوصًا في منطقة بلنسية والقنت وسرقسطة، حيث وصل عددهم في هذا المناطق إلى أكثر من مائتي ألف ودائما حسب أنطونيو دومينيغيث أورطيث وبرنارد فانسون فإن اتخاذ الملك قرار الطرد لم يكن فقط بتأثير من دوق ليرما ومجلس الدولة، بل أيضا بإيعاز وتشجيع من زوجته الملكة مارغريت النمساوية[xlviii] الذي قال عنها الكاهن الذي قام بطقوس جنازتها أنها كانت **"تحمل الحقد المقدس للمورسكيين"**، وأنها سبب أعظم الوقائع في كل تاريخ إسبانيا، ناقش مجلس الدولة مسألة المورسكيين في جلسات بدأت يوم 22 تشرين الثاني عام 1608 ، واستمرت إلى غاية 1609، (في هذه العام تم توقيع الهدنة مع الثوار البروتستانت الهولنديين) بحضور العديد من الأساقفة الذين طلب منهم أن يدلوا بآرائهم، فعارض البعض وساندت الأغلبية، وهكذا بدأت الاستعدادات الفعلية لتنفيذ قرار الطرد هذا ، وكان أبرز هذه الاستعدادات إصدار مرسوم الطرد القسري لمورسكيي بلنسية والذي وقعه الملك فيليب الثالث يوم 19 أبريل 1609 وتم تعميمه يوم 22 ايلول 1609 شهورًا قليلة بعد ذلك وبالضبط في دجنبر من العام نفسه صدر مرسوم طرد المورسكيين من سائر المناطق[xlix]

ثانيا : الاوضاع الداخلية في اسبانيا في عهد فيليب الثالث

تميز عهد فيليب الثالث بالاستقرار النسبي مقارنةً بعهد والده فيليب الثاني، لكنه شهد أيضاً تراجعاً في العديد من المجالات، وشملت النواحي الاقتصادية اذ ازدهارٌ في بداية العهد بفضل تدفق الذهب من أمريكا الى اسبانيا، لكن سرعان ما تدهور بسبب الحروب المكلفة في هولندا وألمانيا وكذلك الفساد وسوء الإدارة والتضخم وارتفاع الأسعار ومن جهة اخرى ازدياد عبء الضرائب على الشعب وركود في الزراعة والتجارة[l] ومن الناحة السياسة ضعف الملك فيليب الثالث وتنازله عن الكثير من سلطاته لـ المُفضّلين، وخاصةً دوق ليرما فضلا عن ذلك هيمنة النبلاء على الحكومة وازدياد نفوذ الكنيسة الكاثوليكية على الحكومة كما زادت صراعات داخلية بين الفصائل المختلفة في البلاط ، استمرار النظام الطبقي الصارم في اسبانيا كما تفاقم الفقر والبؤس بين الطبقات الدنيا وهجرة العديد من الإسبان إلى أمريكا بحثاً عن فرص أفضل لكن هناك جانب ايجابي في عهد فيليب الثالث وهو ازدهار الفنون والآداب، خاصةً العصر الذهبي للأدب الإسباني ازدياد نفوذ محاكم التفتيش انتشار التعصب الديني[li]

المبحث الثالث فيليب الرابع

ولد فيليب الرابع في بلد الوليد الاسبانية، في 8 نيسان 1605 وكان ابنًا لفيليب الثالث ملك إسبانيا ومارغريت النمساوية هي والدته تزوج من إيزابيل البوربونية عام 1615، وأنجب منها ثمانية أطفال تولى فيليب الرابع العرش عام 1621، بعد وفاة والده حكم إسبانيا لمدة 44 عامًا، وهي أطول فترة حكم في تاريخ سلالة هابسبورغ [lii] تميزت فترة حكمه بالعديد من الحروب والتمردات والأزمات

الاقتصادية عدّ ملك إسبانيا البرتغال الذي تولى الحكم عام 1621 حتى مماته و الملقب بالملك العظيم أو الكوكب الذي وصل عهده إلى اربعة واربعون عاماً، هو الأطول في عهد أسرة هابسبورغ والثالث في تاريخ إسبانيا بعد فيليب الخامس وألفونسو الثالث عشر[liii] خلال المرحلة الأولى من حكمه شارك في إدارة شؤون البلاد دوق اوليفاريس(Olivares) الذي تبنى سياسة حرب طموحة في الخارج وإصلاح في الداخل سعى من خلاله إلى الحفاظ على الهيمنة (الإسبانية في أوروبا، حيث بعد سقوط أوليفاريس تولى بنفسه مسؤولية شؤون الحكومة بمساعدة حاشيته المؤثرة مثل: لويس دي هارو ابن شقيق أوليفاريس وراميرو نونيز دي غوزمان بشرت السنوات الأولى الناجحة لحكمه باستعادة الهيبة والسيطرة على آل هابسبورغ لكن الحرب المستمرة بين أوروبا البروتستانتية وفرنسا الكاثوليكية ضد إسبانيا أدى ذلك إلى انحطاط إسبانيا هابسبورغ وخرابها، أيضاً الاستسلام في الساحة الأوروبية لهيمنة فرنسا المزدهرة تحت حكم لويس الرابع عشر فضلاً عن الاعتراف باستقلال البرتغال وجمهورية هولندا[liv]

اولاً: إنجازات فيليب الرابع ملك إسبانيا خلال فترة حكمه (1621-1665):

أجرى قناعه الجديد سلسلة من الإصلاحات للحفاظ على الهيمنة الإسبانية في أوروبا وتم إجراء هذه التغييرات في أربعة جوانب: إصلاح الحياة العامة وتعزيز النشاط الاقتصادي وتطوير آلية جباية الضرائب ودفع تكاليف تشكيل جيش موحد كان الملك الجديد مهتماً بزيادة عدد سكان إسبانيا لسكان البلاد فمنع الهجرة إلى الخارج وشجع على دخول المهاجرين، أيضاً لتعزيز التعليم أمر ببناء الكلية الملكية في مدريد ومؤسسات أخرى التي كان يديرها اليسوعيون، ثم سعى إلى حظر الدعارة في جميع البلدان كجزء من إصلاح العادات وعمل فيليب الرابع على تعزيز سلطة الملك المركزية من خلال الحد من نفوذ النبلاء والأقاليم و قام بتقوية مجلس قشتالة كمركز إداري للدولة، مع توسيع صلاحياته في مجالات مثل الضرائب والعدالة[lv] بموجب مرسوم ملكي أمر الأشخاص الذين يشغلون مناصب عامة بالإعلان عن ممتلكاتهم ولمواكبة هذا المرسوم ومتابعته، حيث سيتم تشكيل مجلس الإصلاح وتحويله إلى هيئة مكرسة لضمان الحياة العامة للمواطنين وحرص على تعيين موظفين أكفاء ومخلصين في المناصب الحكومية، بغض النظر عن مكانتهم الاجتماعية[lvi] ومن زيادة اموال الخزينة فرض فيليب الرابع ضرائب جديدة لزيادة إيرادات الدولة، لكن ذلك أدى إلى استياء شعبي واسع بعدها قام على توحيد العملة وتحسين قيمتها، مما ساعد على الاستقرار الاقتصادي ولاكتساب المزيد من الشعبية أطلق الملك الجديد حملة ضد الفساد داخل جهاز النظام السابق وأمر بسجن دوقات يوزدا ودوقات أوسونا ومصادرة ممتلكات دوق ليرما، أيضاً تقديم رودريغو كالديرون إلى العدالة وحكم عليه بالإعدام وكان هؤلاء منافسين للحاجب دوق أوليفاريس[lvii]

ثانياً: السياسة الخارجية في عهد فيليب الرابع

لعبت إسبانيا دورًا هامًا في حرب الثلاثين عامًا (1618-1648)، التي كانت صراعًا واسع النطاق في أوروبا نجم عن صراعات دينية وسياسية اذ كانت إسبانيا قوة كاثوليكية رئيسية، ودعمت بشدة

الإمبراطورية الرومانية المقدسة، بزعامة آل هابسبورغ الكاثوليك، في صراعها ضد البروتستانت وقدمت إسبانيا المساعدة المالية والعسكرية للإمبراطور، بما في ذلك إرسال جيوش من إيطاليا وهولندا الإسبانية.لعبت القوات الإسبانية دورًا حاسماً في العديد من الانتصارات الكاثوليكية الرئيسية، مثل معركة **"فيتستوك"** عام 1632 سعت إسبانيا أيضًا إلى استخدام الحرب لتحقيق أهدافها السياسية الخاصة، بما في ذلك تعزيز هيمنتها على إيطاليا وهولندا واجهت إسبانيا صعوبات مالية متزايدة مع استمرار الحرب، مما أدى إلى ضعف قدرتها على المضي قدمًا في أهدافها[lviii] على الرغم من أن إسبانيا لم تحقق جميع أهدافها في حرب الثلاثين عامًا، إلا أنها ظلت قوة عسكرية رئيسية في أوروبا لعدة عقود بعد ذلك أدت الحرب إلى استنزاف الموارد الإسبانية بشكل كبير، وساهمت في التراجع التدريجي لإمبراطورية هابسبورغ في القرنين التاليين فقد عززت معاهدة "ويستفاليا" التي أنهت الحرب، مبدأ سيادة الدولة، مما قلل من نفوذ الكنيسة الكاثوليكية ونشر الأفكار الممهدة لعصر التنوير بشكل عام، كان لإسبانيا تأثير كبير على مسار حرب الثلاثين عامًا، ودورها في الصراع كان مدفوعًا بمزيج من العوامل الدينية والسياسية[lix] على الرغم من التحديات التي واجهها، تمكن فيليب الرابع من تحقيق بعض الإنجازات خلال حكمه قام بإصلاحات إدارية وقانونية ساعدت على تحسين كفاءة الحكومة شجع الفنون والآداب، وازدهرت الثقافة الإسبانية خلال فترة حكمه أمر ببناء العديد من القصور والمعالم المعمارية الرائعة توفي فيليب الرابع في مدريد في 17 ايلول 1665، عن عمر يناهز 60 عامًا بعد ذلك تولى حكم اسرة ال هابسبورغ ابنه كارلوس الثاني الذي كان اخر ملوك تلك الاسرة الذي استمر حكمة من عام 1665الى عام 1700 وادت وفاته دون وريث مباشر الى حدوث حرب الخلافة الاسبانية[lx]

الخاتمة

شهدت الإمبراطورية الإسبانية تحت حكم أسرة آل هابسبورغ (1516-1700)حقبة من التناقضات ، اتسعت حدودها بشكل هائل لتشمل إمبراطورية عالمية، بينما واجهت تحديات اقتصادية وعسكرية أدت إلى تراجع قوتها في نهاية المطاف. تميزت هذه الحقبة بازدهار ثقافي وفني هائل، بينما عانت من اضطرابات داخلية وصراعات خارجية ففي مرحلة شارل الخامس شهدت هذه المدة اتساعًا هائلاً للإمبراطورية، ضمت إيطاليا وأمريكا الشمالية وجنوب أمريكا وأجزاء من آسيا وفي مدة فيليب الثاني واجهت الإمبراطورية حروبًا خارجية مع فرنسا والعثمانيين، بينما تميزت داخليًا بتعزيز الكاثوليكية، اما عهد فيليب الثالث شهدت هذه المرحلة تراجعًا اقتصاديًا وعسكريًا، وازدادت حدة الصراعات الداخلية وخلال حكم فيليب الرابع شهدت هذه المدة حرب الثلاثين عامًا، وفقدت الإمبراطورية بعض أراضيها في أوروبا ومن الناحية الايجابية الازدهار الثقافي والفنية وظهور العصر الذهبي الإسباني اذ شهدت هذه الحقبة إبداعات أدبية وفنية عظيمة، شملت أعمال ميغيل دي سيرفانتس، وديبغو دي فيلاسكيز، وإل جريكو ، كما تميزت هذه الحقبة بأسلوب معماري فخم ومزخرف، تجسد في كاتدرائية ساغرادا فاميليا في برشلونة و لعبت الإمبراطورية دورًا هامًا في نشر اللغة الإسبانية والثقافة الإسبانية في جميع أنحاء العالم ومن النواحي السلبية واجهت الإمبراطورية تراجعًا في الإيرادات بسبب التضخم وفقدان بعض أراضيها فقد تركت الإمبراطورية بصمة قوية على النظام الدولي، حيث ساهمت في تشكيل توازن القوى في أوروبا على

الرغم من التحديات التي واجهتها، حافظت الإمبراطورية الإسبانية على مكانتها كقوة عالمية خلال حكم أسرة آل هابسبورغ ترك إرث الإمبراطورية تأثيرًا عميقًا على إسبانيا والعالم، وما زال هذا التأثير واضحًا حتى يومنا هذا.

(i)للاطلاع ينظر: فاتن محيي محسن ، الامبراطور شارل الخامس والحياة الاقتصادية في اسبانيا 1500-1558، مكتبة نور الحسن ، بغداد،2018،ص20-25.

(ii)Alvarez Fernández, Carlos V, Munich، 199, P.119.

(iii)j. H. Elliott، Imperial Spain 1469-1716، 1st. ed, London، 1966،p.22.

(iv)Hamilton، American Treasure and the price .، Op. cit.، P.289.

(v)Henry Kamen، Spain 1469-1714 Asociety of Conflict، Ist ed.، New Yo، 1983،pp.86-88.

(vi) فلاح حسن عبد الحسين ، بعض التفسيرات الاقتصادية لتدهور الإمبراطورية الإسبانية في منتصف القرن السابع عشر ، مجلة المؤرخ العربي، ، العدد ٣٢ ، ١٩٨٧، القاهرة، ص63.

(vii) ضمياء عبد الرزاق خضير ، سياسة اسبانيا الخارجية في عهد فيليب الثاني 1556-2598،اطروحة دكتوراه (غير منشورة)، جامعة تكريت ، كلية التربية للعلوم الانسانية ، 2016 ، ص14-15.

(viii)Roger Bigelow Merriman، The Rise of the Spanish Empire in the Old World and in the New، Cooper Square، (New York، 1962)، vol. iii، pp54-56.

(ix)William Robertson، The History of the Reign of the Emperor Charles V، Harper & Brothers، (New York، 1868)، pp. 103- 121.

(x)Henry Kamen، Philip of Spain، Yale University press، (New Haven، 1999)، pp. 23-28.

(xi))Manuel Fernández Alvarez، Corpus Documental Carlos V، Ediciones Universidad، (Salamanca، 1974-1981، 5 vols.)، vol. ii، pp. 569-601.

(xii)Geoffrey Parker، The Grand Strategy of Philip II، Yale University press، (New Haven-London، 2000)، pp. 77-78.

(xiii) ضمياء عبد الرزاق خضير ، المصدر السابق ، ص40-42.

(xiv)شوفي الجمل وعبدالله عبد الرزاق ، تاريخ اوروبا ، المكتبة المصرية ، القاهرة ،2000. ص 385.

(xv)ستار حامد عبدالله العماري وعباس حسن عبيس الجبوري، المستعمرات الاسبانية في افريقيا، مجلة كلية التربية للعلوم التربوية والانسانية ، جامعة بابل ، العدد 21، حزيران 2015،ص525-529.

(xvi) شوفي الجمل وعبدالله عبد الرزاق، المصدر السابق ، ص387.

(xvii)A. W. Lovett، "The Castilian Bankruptcy of 1575"، The Historical Journal، vol. 23، no. 4، Cambridge University press، (December 1980)، pp. 899-911.

(xviii)Quoted in: Charles Weiss، Papiers d'État du cardinal de Granvelle، Imprimerie royale، (Paris، 1841-1852، 9 vols.)، vol. v، p. 606.

(xix)Lacey، Robert، The Life and Time of the Henry VIII، London، Book Club Associates، 1972، P.79.

(xx) شوقي الجمل وعبدالله عبد الرزاق، المصدر السابق ، ص390.

(xxi)Geoffrey Parker، Op. Cit، p80.

(xxii)Alvarez. Op. Cit. vol. ii، pp. 572-573.

(xxiii)ضمياء عبد الرزاق خضير ، المصدر السابق ، ص40-42.

(xxiv) انطونيو دومينغيز هورتز وبرنارد بنثنت ، تاريخ مسلمي الأندلس، ترجمة عبد العال صالح طه، دار الإشراق، ، قطر ، 1988، ص 22.

(xxv) عبد الجليل التميمي ، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، مجلة التاريخ المغربية، العدد 23 - 24 ، نوفمبر 1981، ص196.

(xxvi) لويس كارديلك، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون منشورات المجلة التاريخية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، تونس، 1983، ص 89 - 101 .

(xxvii)Luciens dollfus، Etudes sur le Moyen age Espagnol، Leroux، Paris، 1894، p.319.

(xxviii)Moulay Belhamissi، Marine et Marins d'Alger، T.2، B.N.A.، Alger، p.87.

(xxix)Diego de Haedo، Histoire des rois d'Alger، traduit par: H.D. Grammont، Revue Africaine، t.24، 1880، p.404.

(xxx) انطونيو دومينغيز هورتز وبرنارد بنثنت ، المصدر السابق ، ص25.

(xxxi) لويس كارديلك ، المصدر السابق ، ص102.

(xxxii) Peter Pierson، History of Spain، London، 1979، P.187.

(xxxiii)Jane Dunn، Elizabeth and Mary Cousins Rivals Queens، London، 2005، P.182.

(xxxiv)peter pierson، Op. Cit.، P.53.

(xxxv)Richard L. Greaves، Society and Religion in Elizabethan England، New York، University of Minnesota press، 1981، P.203.

(xxxvi)حيدر صبري شاكر ،حرب بريطانيا الخارجية واثرها على التوسع الاستعماري 1588-1763، مجلة الباحث ، العدد30 ، 2019، ص365-367.

(xxxvii) نور الدين حاطوم ، تاريخ القرن السابع عشر في اوروبا ، دمشق ، 1986. ص311.

(xxxviii)John Hungerford Pollen، The English Catholics in the Reign of Queen Elizabeth، New York، 1971 ،P.299.

(xxxix)Frederick Bradshaw، A short History of Modern England، London، 1951، P.28.

([xl]) حيدر صبري شاكر، المصدر السابق ، ص369.

([xli]) محمد يوسف ابراهيم وعدنان صالح محمد ،حرب الارمادا في الاسباب والنتائج ، مجلة جامعة تكريت ، العدد 11، 2020، ص317.

([xlii]) حيدر صبري شاكر، المصدر السابق ، ص370.

([xliii]) نور الدين حاطوم ، المصدر السابق ، ص313.

([xliv])Garret Mattingly، The Invisible Armada and Elizabethan England، London، Cornell University press،1969 ،P.65.

([xlv])محمد عبد المومن ، مرسوم طرد الموريسكيين من مملكة بلنسية، مجلة كان التاريخية ، العدد34، 2016،ص158.

([xlvi])F.J.B. James، "The Spanish Armada in Ulster"، Jul. 1895، Vol. I، No.4، PP.298 – 299.

([xlvii]) محمد عبد المومن ، المصدر السابق ، ص189.

([xlviii])Domínguez Ortiz، Antonio; Vincent، Bernard (1993). Historia de los moriscos. Vida y tragedia de una minoría. Madrid: Alianza Editorial. Pp. 164.

([xlix])Domínguez Ortiz، Antonio; Vincent، Bernard (1993). p. 170.

([l])Thomas Johnson Westropp، "Notes on the Armada Ships Lost on the Coast of Clare 1588"، Apr - Jul. 1889، Vol. 9، No. 79، PP.131-132.

([li])W.F. Tilton، "A Memorial of Lord Burghley on Peace with Spain 1588"، Apr. 1896، Vol. I، No. 3، PP. 490-492.

([lii])Stradling, R. A. Philip IV and the Government of Spain, 1621–1665. Cambridge: Cambridge University Press, 1988,pp.220-222.

([liii])Elliott, J. H. The Count-Duke of Olivares: The Statesman in an Age of Decline. New Haven: Yale University Press, 1986,p.76.

([liv])Stradling, R. A.,Op.Cit.,p,225.

([lv])Thomas Johnson Westropp, Op.Cit.,p.134.

([lvi])Stradling, R. A.,Op.Cit.,p,227.

([lvii])Elliott, J. H., Op.Cit.,p.79.

([lviii])Brown, Jonathan. A Palace for a King: The Buen Retiro and the Court of Philip IV. New Haven: Yale University Press, 1980,91.

([lix])W.F. Tilton, Op.Cit.,p.494.

([lx])Brown, Jonathan, Op.Cit.,p.92.

The Spanish Empire under Habsburg Rule

Prepared by : Aseel Talib Jabbar
Ministry of Education / First Karkh Education Directorate
Aseeltalib416@gmail.com

Abstract

King Philip II, a member of the Habsburg dynasty, ascended to the Spanish throne and ruled a vast and diverse empire between 1556 and 1598. During his reign, he encountered numerous challenges, including religious conflicts that dominated Europe at the time. The continent was deeply divided by struggles between Catholics and Protestants, and Philip II was firmly committed to the Catholic faith. Spain also became involved in rivalry and conflict with England, which was emerging as a growing maritime power.

Despite these challenges, the Spanish Empire achieved significant accomplishments, particularly during the reigns of Philip III and Philip IV. Among these achievements were the expansion of Spanish influence and the exploration and colonization of new territories in the Americas and Asia. The Habsburg era also witnessed a remarkable cultural flourishing, as many Spanish artists, writers, and scholars rose to
prominence and gained international recognition for their contributions.

Keywords: Spanish Empire, Castile, Philip II, Armada